مقال افتتاحي

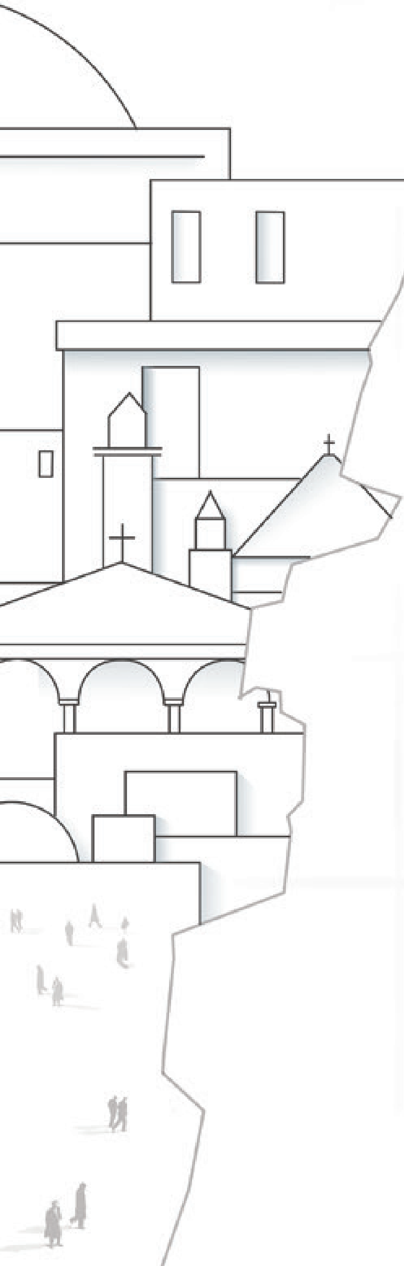

السعيداني، منير، مجلة القدس للبحوث الأكاديمية-
نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية 2 (1): 8-4، 2026
DOI: https://doi.org/10.47874/ecge3505

الفيل والعُمْيَانُ الثّلاثة
عن المعرفة والتحيّزات النَّقِيضَة

منير السعيداني

الملخص

يعرض المقال آليات إنتاج المعرفة في المنطقة العربية، مستعرضاً مسارات تشكل التأسيسين الأول والثاني للأكاديميا الإنسانية والاجتماعية العربية، والموجات الثلاث للنقدية العربية (الإسلامية). يركز المقال على الوضعية، والأحادية التخصصية، واللاتاريخية وما بنته من مركزيات إبستيمية، مستخدماً أمثولة «الفيل والعميان الثلاثة» لتوضيح مدى مناقضة هذه التحيزات للمعرفة، ومستشرفا آفاق تجاوزها في اتجاه انتقال فعلي إلى باراديم نقدي جديد. وضمن أمثلة متعددة يستند إليها، يبرز المقال أهمية الحالتين الخلدونية والفلسطينية ضمن المختبر الإبستيمولوجي الحي الذي يشتغل على نقض استعمارية المعرفة الإنسانية والاجتماعية العربية المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: الأكاديميا الإنسانية والاجتماعية العربية. النقدية العربية. المركزية الإبستيمية. فلسطين مختبرا إبستيمولوجيا.

The Elephant and the Three Blind Men: On Knowledge and Contradictory Biases

Mounir Saidani

ABSTRACT

The article presents the mechanisms of knowledge production in the Arab region, reviewing the formation pathways of the first and second foundations of the Arab humanities and social academia, as well as the three waves of Arab (Islamic) criticism. It focuses on positivism, mono-disciplinarity, and ahistoricism, along with the epistemic centricities they have constructed. It employs the parable of ‘the elephant and the three blind men’ to illustrate how these biases contradict knowledge, while envisioning the prospects of overcoming them toward an actual transition to a new critical paradigm. Among various examples it relies upon, the article highlights the significance of the Khaldunian and Palestinian cases within the living epistemological laboratory that aims to elaborate a decolonial antithesis of contemporary Arab humanities and social knowledge .

Keywords: Arab Humanities and Social Academia, Arab Criticism, Epistemic Centricity, Palestine as an Epistemological Laboratory.

الأستاذ الدكتور منير السعيداني، باحث في علم الاجتماع- تونس، رئيس تحرير عمران للعلوم الاجتماعية- المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
للتواصل: mounir.saidani@dohainstitute.org.
حقوق النشر 2026، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن استخدام عن طريق جامعة القدس، (www.alquds.edu).
Professor Mounir Saidani, Researcher in Sociology, Tunis; Editor-in-Chief of Omran Journal for Social Sciences, The Arab Center for Research and Policy Studies.
For correspondence: mounir.saidani@dohainstitute.org.
Copyright 2026, all data in this article is protected and permission for use must be obtained through Al-Quds University (www.alquds.edu).

مقدمة

لا يمكن لا لناب الفيل الصّقيل، ولا لجلد سيقانه الخشنة، ولا لأذنيه النّاعمتين، كلٌّ بمفرده، أن يعطي صورة شاملة عمّا هو الفيل في الحقيقة. ذلك هو المعنى الذي تدلّ عليه حكاية «الفيل والعُميان الثلاثة» ذات الأصل الحِكَمِيّ الهندي، والتي تُستعمل لبيان أن إدراكنا الجزئي للأشياء لا يتمثّلها كاملة ولا يستغرق كل حقيقتها. وليس الأكاديميون بالمعفيين من مثل هذه التحيّزات، ذلك أنّهم، من مناظير علم اجتماع المعرفة وتاريخها وسياقاتها السياسية وبيئاتها الأنتروبولوجية، في قلب النزاع الاجتماعي، بذواتهم، وبِنِتَاجَاتهم التي يتدخّلون بها في الجَدَل العُمُومِيّ. ولذلك، يمكن لأمثولة الفيل والعُميان الثلاثة أن تكون استعارة مُنَاسِبَة لمناقشة حيثيّات إنتاج المعرفة العلميّة الإنسانية والاجتماعية، ومقتضاه أن يقف الأكاديميون والأكاديميّات على ضفّتين متقابلتين يسود في كل ضفة منهما تمثّل للعالم المعاصر نقيض للثّاني. ولئن لم تكن تلك الحيثيات مُستحدَثة، فإنّها تمرّ، راهنا، بمنعطف جديد، حادٍّ وعميقٍ، ظلّت مُقدّماته تتراكم وتتبادل التأثير والتأثر على امتداد عقود، وعلى الأخص منذ منعرج استتباب العولمة، أواخر ثمانينيات القرن العشرين وبداية تسعينياته، إذ تزايد وضوح ما يسمّيه سوبراهمانيام (Subrahmanyam، 2022) «التّرابط ما بين التّواريخ» المحلّي منها والوطنيّ والإقليميّ والدّوليّ. ولكن، لا يسمح المجال المتاح للمناقشة هنا إلا بتغطية ما يجري في منطقتنا العربية، وبالكثير من التعميم، بحيث يرد على صيغة خطاطة. وفي هذه المناقشة يمثّلُ العميانَ الوضعيّونُ، وأُحاديّو التخصّص، والمنفصلون عن تاريخية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة العربيّة الإسلاميّة بمكوّناتها الكلاسيكيّة والحديثة والمعاصرة.

سيادة التحيّز الوضعي وآفاق تجاوزه

خلال أواسط القرن العشرين كان التأسيس الأوّل للأكاديميا الإنسانية والاجتماعية العربية. وضمن جدل المجال والمعرفة والسلطة تحت الأنظمة ما بعد الاستعمارية، كان أساس ذلك البناء وضعيا. فقد تمّ من خلال الاندراج في مركزيات مترابطة هي أساسا المركزيّة الاستعماريّة (هيمنة الزّمن الاستعماريّ في صياغة ‹التاريخ العربي› الحديث)، والمركزية الأوروبية (هيمنة إبستيميا الحداثة الأوروبية) (زريق، ٢٠٢٠)، ومركزية السّلطة-الدّولة (مأخوذتين على أنّهما الفاعلان الاجتماعيّان الأوحدان في التّغيير الاجتماعي، تقريبا)، والمركزيّة الحَضَريّة (هيمنة ‹المدينة› وإشكاليّاتها في المباحث)، والمركزيّة الذّكوريّة (هيمنة فعل الذّكور في التّاريخ والمجتمع وفي صناعة المعرفة بهما). وخلال ربع القرن الأخير، تغيّر المشهد المؤسّسي الأكاديميّ الإنسانيّ والاجتماعيّ العربيّ، بتعدّد المراكز البحثيّة وتكاثر الكلّيات وتزايد المجلاّت المتخصّصة وإنشاء منابر للنّقاش والتّداول وظهور أقطاب معرفيّة جديدة كما في الخليج، وبناء مؤسّسات جامعة لتنظيم الاشتغال بالمعرفة وتحفيزه وإحكام تشبيكه مثل المجلس العربيّ للعلوم الاجتماعيّة. وقد مثّلت كل هذه العوامل متضافرة سمات ما أُسَمِّيه التّأسيس الثّاني للأكاديميا الإنسانيّة والاجتماعيّة العربيّة.

مكّن هذا التأسيس من رسم آفاق تجاوز التحيّز الوضعيّ، وإطلاق ديناميّة انتقال إلى بارادايم نقديّ جديد. ولا يتعلّق الأمر بما انتشرت تسميته وساد توصيفه منذ منتصف ثمانينيات القرن العشرين على أنّه «أزمة العلوم الاجتماعية في الوطن العربي» (حجازي وآخرون، ١٩٨٦) والاقتصار فيه على وصف وضعها المتأزم، وعرض تفاصيله، وإعلان عجزها عن إنتاج «نظريّاتها الخاصة» و«فهمها المميز لمجتمعاتها»، بل بنقده نقدا إبستيمولوجيا ظل آخذا بالتعمّق والتّشعُّبِ والاتّساع بحيث يشمل بأثره مختلف المركزيّات المذكورة. ذلك ما أسمّيه ‹النَّقْدِيَّة العربية الجديدة› والتي تمثل الموجة الثالثة من النقدية العربية (الإسلامية) بعد أن كانت أولاها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وثانيتها خلال التأسيس الأول للأكاديميا الإنسانية والاجتماعية العربية. في هذا المضمار، أخذ تجاوز التحيّز الوضعي بالتّبَلْوُر على ثلاثة أسس. أمّا أوّلُها فإبستيمولوجي وكان في قلبه النقد العميق لميراث السوسيولوجيا والأنتروبولوجيا الاستعماريّتين (الفرنسية في المغرب الكبير، والبريطانية فالأمريكية في المشرق والخليج)، ولعدم الانتقال إلى مواقع نقدية تجاه الإحصاء الرّسميّ وتكميم الظواهر، ولوثوقيّة الوثيقة المُحَقَّقَةِ والمُفَهْرَسَة في خزائن «الأرشيفات الوطنيّة الرّسمية»، ولإهمال التركيز، لدى تحليل المجتمع، على تاريخيته، وديناميّته، وتشعّب علاقات القوّة والهيمنة فيه، وللتغاضي عن وقوع كل ذلك تحت أثر تفاوتات اجتماعيّة مختلفة، منها الطّبقيّ، والجيليّ، والمجاليّ-المناطقيّ، والجندريّ. وأمّا ثاني أسس تجاوز التحيّز الوضعيّ فتمثل في العمل على بلورة معرفةٍ أدقّ وأعمق وأشمل وأكثر تفصيلا بأوضاع العلوم الاجتماعية في العالم العربي وأقل انحباسا في أطرها القُطرية والجهوية القديمة بفضل إصدارات من قبيل تقارير المرصد العربي للعلوم الاجتماعية (بامية، ٢٠١٥؛ حمودي، ٢٠١٨؛ دلاّل، ٢٠٢٣). وكانت تلك هي خلفية تحرّر المعرفة الاجتماعية العربيّة من أَسْر أسوار الجامعات وضيق قاعات مراكز البحث الأكاديمي وتعليب أروقة الثينك تانك (Think Tank)، وانفتاحها أكثر فأكثر على الإنسانيات والفنون (الصدّة، ٢٠٢٤). وأمّا ثالث أسس تجاوز التحيز الوضعي فمرتبط بالبنية التحتيّة المعرفية، حيث تمّ الانفتاح على مصادر المعرفة غير التقليدية، بما شمل الإثنوغرافيا النقدية، ومنصّات النشر وصِيَغِه و«لغاته» الجديدة، وأصواتها النسائية والنّسوية، والفقيرة، والرّيفيّة والقَرَوِيَّة والبَدَوية، والشّابة، وذلك على نَحْوٍ مكّن تلك المعرفة من أن تتّخذ لها مواقع أكثر قربا من الجدل العمومي بعد الثورات -الانتفاضات العربية. وبناء على هذه الأسس، فتحت المعرفة الإنسانية والاجتماعية العربية آفاق منعطفاتٍ سرديّة (في الأنتروبولوجيا) وأنطولوجية (في علم الاجتماع، والدراسات الحضارية، ونقد الاستشراق) وأنتروبولوجية (في التاريخ) واجتماعية- تاريخية (في علم السياسة) وموقعية (معرفة المعيش، معرفة اليومي، المعرفة من تحت، التقاطعية). ولكن القطيعة مع التحيّز الوضعي، وديناميّة الانتقال إلى بارادايم نقدي جديد متفاوتتان ومتباينتان وغير متكافئتين، في وجوهٍ خمسة. أولها أنّ مفهومتهما لا تزال قَيْدَ المُناقشة، وفيها تباينات تمتدّ من «الأسلمة» (حنفي، ٢٠١٦)، إلى «التوطين»، وإلى «الأهْلَنَةِ» (هنية، ٢٠٢٦)، و«التَّبْيِئَةِ»، و«إعادة الصّياغة» وصولا إلى «نزع استعمار العقل» و«فكفكته» و«الديكولونيالية» و «نقض استعمارية المعرفة» (السعيداني، ٢٠٢٦). وثاني الوجوه هو الوقوع تحت أثر العوائق المؤسّسية والسّياسية، بما يمنعُ ظهور «بارادايمات عربيّة» مستقلّة (دلاّل، ٢٠٢٣). وثالثها عُسر خلق «فضاء بحثي عربي» ذي بنية تحتيّة صلبة، متكاملة المكوّنات القطرية والجهوية والشاملة لكامل المنطقة، تَسْتَدْمِجُ باحثي الشتات الأكاديمي العربي العامل خارجها، وتمكّن من تدفّق الأفكار بعيداً عن الرّقابة، وتَصُونُ المعرفة تجاه الاعتداءات على الحريّات الأكاديمية، وتقيها مخاطر التلف والإتلاف في خضم الأزمات والحروب العداونية والإبادات الإبستيمية (صون المعرفة، ٢٠٢٦).

ورابعها علاقة هذا التحوّل في إنتاج المعرفة الاجتماعية النقدية الجديدة بتحقيق الانتقال الجيلي فيه. أما خامس الوجوه، فهو تبيان خصوصية القطيعة والدينامية العَرَبِيَّتَيْنِ كليهما ضمن القطائع والديناميات الرّديفة-الشبيهة في كل من أفريقيا، وأمريكا الجنوبية وأرجاء آسيا، وفي مراكز المعرفة النقدية الجديدة في أوروبا وشمال أمريكا.

سيادة الُحَادِيَّة التَّخَصُّصِيَّةُ وآفاق تجاوزها

ليس المقصود هنا اشتغال الأكاديميين بتخصّص معرفيّ واحد، بل الاشتغال به بعَزْلِهِ عن غيره. وقد كان التحيّز الوضعي السائد في الأكاديميا الإنسانية والاجتماعية العربية زَمَنَ تأسيسها الأوّل، يحرص على تفرّد كلّ اختصاص بموضوعه، وحماية معالمه، وتسييج حدوده، وفَصْلِه عمّا عداه. كان عزل التخصصات عن بعضها البعض يُقَدَّمُ على أنّه حرص على العلميّة وعلى احترام قواعد البحث كما تعلّمها المدرّسون الجامعيّون والباحثون العرب من معلّميهم المباشرين، الأوروبيين والأمريكيين. كما كان يُقدّم على أنّه طريق الباحثين المثلى إلى نحت مساراتهم الخاصّة حتّى يصيروا متخصّصين في مسائل محدّدة ومن ثمّ في تخصّصات علميّة معيّنة، بأمل ريادتها. وكثيرا ما تُرجم ذلك بإعادة إنتاج خصومات تخصّصية موروثة على الأغلب من أوروبا كما هو حال الخصومة بين ما يُسمّى على العموم «علمَ الاجتماع ذا التقليد الفرنسي» الّذي يقدّم غالبًا على أنّه وضعي، وما يسمّى «علمَ الاجتماع ذا التقليد الألماني» الذي يقدّم على الأغلب على أنّه غير وضعي، وخصومات التنظير في المناهج غير المبنيّة بالضرورة على ممارسات بحثيّة فعليّة، والخصومة بين علم الاجتماع والأنتروبولوجيا، أو بين علم الاجتماع والتاريخ، مُضافة إليها خصومات المنتِجين بحوثَهم بالفرنسية من جهة وبالإنجليزية من جهة ثانية وبالعربية من جهة ثالثة،... إلخ.

وضمن التأسيس الثاني للأكاديما الإنسانية والاجتماعية العربية، وبإطلاقه النّقدية الجديدة، ارتسمت آفاق تجاوز الُحاديّة التخصّصيّة، على أساس قراءة الكيفيّات التي تمّ بها بناء المعرفة الأكاديمية العربية الإنسانية والاجتماعية، في تأسيسيها الأول والثاني، تاريخيًّا وسوسيولوجيًّا وأنتروبولوجيًّا، وبما شمل اقتصاد المعرفة، وسياسات إنتاجها واستراتيجياته وحَوْكَمَته. وقد تبيّن (تقارير المجلس العربي للعلوم الاجتماعية) أنه لا يوجد منوالٌ واحدٌ يمكن النسج عليه لتجاوز أُحادية التخصّص، وليست الطريق إليه وَاحِدَةٌ مُنَمَّطَةٌ، إذ تتوزّع آفاقه على ثلاثة أبعاد.

أمّا أوّلها فمنهجي، ويتمثل في تَبَنٍّ مُتزايد الرّسوخ للتعدّدية المنهجية حيث يدمج الباحثون في علم الاجتماع مثلا، الإثنوغرافيا مع تحليل المضمون والخطاب، والبحث التاريخي لإنتاج سوسيولوجيا تاريخية ذات أساس أنتروبولوجي. ونلاحظ ذلك في السوسيولوجيا التاريخية للمجتمع العراقي (فالح عبد الجبار) أو المغربي أو الخليجي. في مثل هذه السوسيولوجيا يُعمّقُ تحليل بُنى الدولة والقبيلة والمؤسّسات الدينية والممارسات الاقتصادية، وتُتَتَبَّعُ سيرورات التشكّل التاريخي للهويّات الطائفيّة (أحمد بيضون، لبنان). ويشمل هذا البعد بلورة نقدٍ صارمٍ لمنهجيّات الكتابة العلميّة الاجتماعيّة كما في مثال التّاريخ (كوثراني) بحيث تتوسّع العودة إلى أواخر تاريخ المجتمعات العربيّة «الوسيط» وبدايات تاريخها «الحديث»، بمُرَاعَاةِ ترابط مستوياتها (الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة)، ويُضمّن تجاوز «التّاريخ السّردي»، والنّفاذ إلى تغيّر بُنى المجتمع العميقة ذات الرّسوخ الأنتروبولوجيّ طويل الأمد. وعلى الرّغم من تعدّد مظاهر عدم الانضباط لمقتضيات البحث الكيفيّ المطلوبة، يمثّل اعتماد مَنَاهِجِه مُعطى بارزا ضمن آفاق تجاوز أُحاديّة التخصّص.

وأما ثاني هذه الأبعاد فنظريّ-مفهوميّ، إذ وضعت التحوّلات الاجتماعيّة التي مثّلت سياقا تاريخيّا احتضن التّأسيس الثّاني للأكاديميا الإنسانيّة والاجتماعيّة العربيّة، على بساط الدّرس ضرورة إعادة التّفكير في البارادايمات التي لم تعد قادرة على تفسير الدّيناميات الجديدة. وقد ارتبط أحد وجوه هذا الجهد بالعمل على تفكيك المعرفة الاستعماريّة حول القبائل والمجتمعات المحلّية، وبالاشتغال على كيفيّة صياغة الصُّوَر النّمطيّة عن المجتمع من خلال بناء «المسافة النقديّة» مع موضوع البحث (حسن رشيق). ليست هذه المسافة مسألة منهجيّة بل نظرية لأنّها تفترض أن توضَعُ في أساس البحث مقولاتٌ من قبيل التغير الاجتماعي، والتاريخيّة، وكلّية الظّواهر، ...إلخ. ومن متطلّبات ذلك، تأسيس العمل على فهم الحركات الاجتماعية المعاصرة، مثلا، بوصفها من محرّكات دينامية التغير الاجتماعي بالجمع بين «التَّذْوِيتِ» (رُؤى الفاعلين الذّاتية الخاصّة لعوالمهم) و«المَوْضَعَةِ» (إدراج هذه الرؤى في سياق تاريخيّ واجتماعيّ موضوعيّ) (السعيداني، ٢.٢.). إن إعادة صياغة العلاقة بين ما هو ذَاتِيٌّ- مُذَوَّتٌ وما هو مَوْضُوعِيٌّ- مُمَوْضَعٌ تستوجب اشتغالا نقديا على المفاهيم ومنها ما يتطّلب تبيئة (المجتمع المدني، العلمانية، العقلانية، الدّولة، البيروقراطية، السّلطة، الدّيمقراطية، الشّعبويّة... إلخ)، ومنها ما يتطّلب ابتداعا (القبيلة، الطّقس، الهيمنة، الاجتماع الإنساني، الثقافة الشعبية، التّحديث (التّفطيّ مثلا)، التّنمية... إلخ).

وأما ثالث الأبعاد، فيتمثل في تركيز دينامية إطلاق النقديّة الجديدة على تنظير مُعَقْلَنٍ لتنافذ التخصّصات كما في الاشتغال على التاريخ المديد للمجتمع في بناه العميقة (الإيكولوجية، الأنتروبولوجية، الاقتصادية، الثقافية (الدينية وغير الدينية)، أو بوصفه تاريخاً جديداً، وبالتركيز على اليومي والمعيش (عفيفي). وييسّر مثل هذا التنافذ إحداث قطيعة مع التعاطي مع قوالب التّفسير التاريخي الجاهزة (السّردي، الحَدَثي، الاستعماريّ، الاستشراقيّ، الاقتصادوي، السّياسَوي (في معنييه القومي والوطني)، التّبسيطي، الاختزالي،...). ويمكن، على الإجمال، معاينة آفاق تَجَاوُزِ الُحَادِيَّة التَّخَصّصية في إعادات التعريف المُتَرَاكِبَة التي تشهدها العلوم الإنسانية والاجتماعية العربية، وبما يشمل العُدَّة المفهومية، والأدوات النظرية، والأساليب التحليلية، والمقاربات المنهجية وصولا إلى «إعادة تعريف ميدان البحث ذاته». ذلك أن من أمثلة نَوَاتِجِ هذه الدّيناميّة الجديدة من منظور تنافذ الاختصاصات، تعاظم التوجّه نحو الاشتغال على أنواع عدّة من الأرشيف، غير السّلطويّ منها خاصّة، وبما يشمل الأرشيفات الجديدة على النت، ودمج استنطاق «الوثيقة» التاريخية بالملاحظة السوسيولوجية أو الأنتروبولوجية المباشرة، وخوض تجربة البحث الميداني المعمّقة والمديدة. بهذا المعنى، لا تتميّز العلاقة مع «ميدان البحث» بمجرّد مقاربته بمنظورٍ ومن موقعٍ جَدِيدَيْن، بل وكذلك بكونه، هو ذاته، مُبْتَكَرًا بالنّسبة إلى البحث الأنتروبولوجي، سواء أكان تاريخيا أم اقتصاديا أم دينيا... إلخ. فعلى خلاف ما كان عليه بالنسبة إلى الأنتروبولوجي المستعمر أو الزائر العابر أو الغريب المفتون بالغرائبية، هو ميدان قريب، وبه للباحث العربي صلة حميمة وخاصة (Boukraa, 2026). ومن شأن مثل هذه السمات وغيرها أن تطرح على بساط الدرس من جديد إيتيقا البحث العلمي الإنساني والاجتماعي وأسسها (المجلس العربي للعلوم الاجتماعية, ٢.٢٤).

سيادة اللاّ تاريخيّة وآفاق تجاوزها

ضمن الوضعية التي كانت سائدة في الأكاديميا الإنسانية والاجتماعية العربية وَقْتَ تأسيسها الأوّل، تمثّل القسم الغالبُ من النّقديّة الثّانية التي صاحبته في نقد «التراث». فمنذ أواخر ستينيات القرن العشرين وحتى بداية الألفية الثالثة، ومن منطلقات مختلفة، ظلت تتوالى كُتُب نَقْدِ ما هو تُراثيّ من العقل (الثّقافي، الفلسفي، السياسي، الأخلاقي)، والفكر (الفقهيّ، الأصوليّ، السّلفيّ، اللاّهوتيّ، الثّابت، الجوهرانيّ، اللاتاريخي، ...إلخ)، والنزعات، والإيديولوجيا، والخطاب، والاتّباع، والإسلام، وحتى النهضة والتحديث والتنوير (العروي، الخطيبي، الجابري، أركون مرُوّة، تيزيني، طرابيشي، الشّرفي، السيّد، العظمة، أدونيس، حنفي، أبو زيد، النيهوم، الرّفاعي، ... إلخ). استمر هذا الجهد النقدي متزايدُ التعاظم والتشعب على مرّ عقود النصف الثاني من القرن العشرين، مُرَاوِحًا بين التناول الماركسي (المادي التاريخي/المادي الجدلي)، والنصّي الفيلولوجي، والنّفسيّ، واللّساني في عناوين مرحلته الأولى، وصولا إلى الهرمينوطيقي والتأويليّ، والإبستيمولوجيّ، والتّفكيكي السّياقي، والنّقدي الثقافي، والتاريخي الأنتروبولوجي في عناوين مرحلته الثانية. وبُطرُق متعددة ومن مناظير مختلفة ومسافات متباينة، ورثت هذه النقديّةُ بعض سمات النّقدية العربيّة الإسلاميّة الأولى التي تبلورت خلال النّصف الثاني من القرن التّاسع عشر، وكانت على الأغلب إيديولوجيّة-سياسيّة، غلبت عليها مقولات الإصلاح والتّجديد والتمدّن، منقطعة عن معالجة قسم مُحَدّد من التّراث تُمَثِّلُه العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة العربيّة الإسلاميّة الكلاسيكيّة.

من منظور تاريخي إذن، كنّا، خلال ما يقرب من القرنين، إزاء ثلاث موجات نقديّة وتأسيسيْن للأكاديميا. ويمكن أن نعتبر أن التأسيس الأكاديمي الثاني والنّقدية الثّالثة، يتميّزان بثلاث سمات كبرى. أولاها مركزيّة ابن خلدون فيهما بحيث كان في قلب الاشتغال على مختلف قضايا الاجتماع الإنسانيّ القديمة والحديثة وصولا إلى المعاصرة، من خلال إعاداتِ قراءةٍ متواترة ضمن مختلف التخصّصات (التاريخ، علم السياسة، السوسيولوجيا، الأنتربولوجيا، الجغرافيا التاريخية، ... إلخ)، وهو ما يصحّ على المستوى العربي الإسلامي بل بلغ أحيانا مستوى عالميا أوسع (العطاس، ٢٠٢١). ومن أوجه مركزية ابن خلدون وجودُه في صلب ما تسمّيه بعض التجارب التي تهمّ بعض التخصّصات «إنتاج خطاب علميّ (أنتروبولوجي في هذه الحالة) نابع من التراث المعرفي لمنطقتيْ المغرب والمشرق» (حمودي، ٢٠١٧، ١٢) ضمن إعادة صياغة بعض العلوم (الأنتروبوجيا في هذه الحالة (حمّودي، ٢٠١٠).

تندرج الحالة الخلدونية ضمن أفق أوسع مما كان لنمذجة مختلف أجيال النّقدية والأكاديميا الإنسانية والاجتماعية العربيتين وتتجاوز القراءات اللاتاريخية لمكاسبهما وتؤسس لتبيّنها بِصِفَةٍ نسقيّةٍ. وقد أوردتُ، في العنصرين السابقين، إشارات نظرية ومفهومية ومنهجية وتحليلية تحيل إلى السّمات العامة لهذا التجاوز وانفتاحه على مشاريع تاريخية . ذلك أن من سمات التأسيس الثاني للأكاديميا العربية أنها وسّعت من ممكنات الترابطات المتقاطعة بين التأسيسات والموجات، ربطا مُعَقْلَنًا في مؤسّسات وتجارب بحثية مختلفة، منها الجامعات ومراكز البحث والمجلات وسلاسل الإصدارات، بعد أن كان منحصرا في تنظيرات محلّية كالمغربيّة أو التونسيّة أو المصريّة أو الشاميّة. ويصحّ هذا الأمر على الرغم من استمرار وجود تفاوت بين ما هو «معترف به» ومقبول على نطاق واسع من المفاهيم والمقاربات والمنهجيات المطبّقة على إشكاليات تستند إلى أوضاع قُطْرية (للبلد الواحد) أو إقليمية (لمجموعة بلدان مترابطة جغرافيا-تاريخيا-سياسيا ضمن المنطقة العربية) وبين ما لا يزال غير معترف به ولا مقبول منها. ولكن الأفق الأكبر الذي يمكن أن يكون لتجاوز اللاتاريخية في نمذجة مختلف أجيال النقدية والأكاديميا الإنسانية والاجتماعية العربيتين، هو التعاطي المعرفي مع محورية «الحالة الفلسطينية» التي يزداد تأكّد احتلالها موقع «المختبر الإبستيمولوجي» ضمن مختلف الترابطات المتقاطعة التي أشرتُ إليها. يصح هذا الاعتبار لمركزيتها على ثلاثة مستويات متراكبة. أما الأول، فبوصفها «قضية سياسية» تعيد التأكيد على مركزية ما يتفرع عنها من قضايا الاستعمار وحالاته القديمة والجديدة، وسيروراته التّاريخيّة، وآثاره المتشعّبة المستدامة ضمن الاجتماع الإنساني العربي الراهن. وأما المستوى الثاني، فبوصفها محلاًّ فائق المناسبة لتفكيك مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية واختبار عُدّاتها المفاهيمية ومناويلها التحليلية وبارادايماتها وتجديدها بحيث تكون أكثر مناسبة لمعالجة هذا الاجتماع. وأما المستوى الثالث، فبوصفها مجالا متراكب المستويات لمكافحة الجَوْرِ الإبستيمي والإبادة المعرفيّة. وخلال العقود الأخيرة جَدَّ تحولٌ بالغ الأثر، وجذريٌّ في تنظير فلسطين من خلال الاختبار الناجع لاستخدام «الاستعمار الاستيطاني» إطارا تحليليا مناسبا لها. سمح هذا الإطار، أولا، بإنتاج أنتروبولوجيا فلسطين، تخصّصا يأخذ بسرديّاتها الكبرى كما الصغرى، ولكن وأيضا بيوميّة الحياة كما تعيشها مدنها وقراها وجماعاتها. وسمح ثانيا، بإنتاج تاريخ فلسطين، لا على أنّه تاريخ سلبي لضحيّة، بل بوصفه تاريخ مقاومة متلاحقة الحلقات من جهة وعميقة الجذور من جهة ثانية (الخالدي، ٢٠٢١). وسمح ثالثا، بالوقوف على الأحداث كما على البُنى الاجتماعية والأنتروبولوجية، وعلى سيرورات الاستعمارين البريطاني ثم الصهيوني كما على سيرورات المقاومة، بحيث تمّ بالتوازي، إنتاج سوسيولوجيا تاريخية للاستيطان الاستعماري الإحلالي الإجلائي ونظام الأبارتهايد الذي بناه وتعهّدَه و'سوسيولوجيا الفلسطينيين (زريق،١٩٨٠). وتفرّعت عن كلّ هذه الاهتمامات البحثيّة، اشتغالات منها ما كان على قضايا السّيطرة والرّقابة على الفلسطينيين وتحرّرهم منهما، والجغرافيا السّياسيّة-الثّقافية لحركات ذلك التحرّر، وإنجازاتهم المعماريّة والحضريّة، وسمات رواياتهم الشّفوية، و(إعادة) تشكيل أرشيفهم البصريّ (خزائن، ومشاريع التّوثيق الرّقميّ في بيرزيت)، وصون تراثهم الأثريّ،... إلخ. وضمن هذا الجهد، يمكن اعتبار الدّراسات الإسرائيليّة وتفكيك بنى الصّهيونية المختلفة، وتحليل سياسات الاستثناء الاستعماري، على قاعدة تحوّلات الممارسة البحثيّة من خلال الاشتباك الميدانيّ، مُحرِّكًا لإعادة صياغة العلاقة بين التذويت والموضعة، وإنتاج مفاهيم خصوصيّة فلسطينيّة ذات أبعاد «كونيّة».

الخاتمة

لا تفترض أمثولة الفيل والعميان الثلاث، في صيغتها البيداغوجية، تصميم صاحب الفكر الاختزالي المجزّأ على الحفاظ على قناعته مهما كانت الحقائق الماثلة أمامه دامغة في تفنيدها. ولكنها في صيغتها الإنسانية، تعني أن صاحب مثل هذا الفكر لا يقتنع إلا بما يُشبهه، ولا يُعجَب إلا بما يتلاءم مع تصوّره، ولا يحبّ إلا ما يتوافق مع ما يلبّي مطالبه. وهو على ذلك يرتكب تجاه الحقيقة (المعرفة) تحيّزات القياس على الحالة الذّاتية (المركزية)، واختلاق الوهم لتصديقه (الإيديولوجيا) واختزال العادل في ما يحقّق مَصْلَحَتَه (السياسة). ولذلك فإن تخلي كل أعمى عن يقينه المفرد بناب الفيل أو جلده أو أذنه، وعمله على تشبيك معرفته به بمعرفة الآخريْن يجعلهم جميعا في نقطة التّقاطع التي فيها تتأسّس المشروعيّة الإيتيقيّة والأخلاقيّة لعمل الأكاديميين على تجاوز المعرفة المتحيّزة، وبناء نقائضها.

المراجع

المراجع العربية

- بامية، محمد. (٢٠١٥). *العلوم الاجتماعية في العالم العربي: أشكال الحضور*. التقرير الأول للمرصد العربي للعلوم الاجتماعية. بيروت: المجلس العربي للعلوم الاجتماعية.
- حجازي، محمد عزت، سالم، ساري، شقرون، محمد، وآخرون. (١٩٨٦). *نحو علم اجتماع عربي: علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- حمودي، عبد الله. (٢٠١٧). «الداخلي والخارجي في التنظير للظاهرة القبلية. خطوة في طريق تأسيس خطاب أنتروبولوجي مستقل»، *عمران للعلوم الاجتماعية*، المجلد ٥، العدد ١٩، ص ص. ١١-٥٦، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- حمودي، عبد الله. (٢٠١٨). *العلوم الاجتماعية في العالم العربي*. مقاربة الإنتاجات الصادرة باللغة العربية (٢٠٠٠-٢٠١٦). التقرير الثاني للمرصد العربي للعلوم الاجتماعية، بيروت، المجلس العربي للعلوم الاجتماعية.
- حمودي، عبد الله. (٢٠١٠). *في إعادة صياغة الأنتروبولوجيا*، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- حنفي، ساري. (٢٠١٦). «أسلمة وتأصيل العلوم الاجتماعية: دراسة في بعض الإشكاليات»، *المستقبل العربي*، العدد ٤٥١، ص ص. ٤٥-٦٤، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
- الخالدي، رشيد. (٢٠٢١). *حرب المائة عام على فلسطين: تاريخ الاستعمار الاستيطاني والمقاومة ١٩١٧-٢٠١٧*، ترجمة عامر شيخوني، بيروت،الدار العربية للعلوم ناشرون.
- خزائن https://www.khazaaen.org/ar.
- الخطيبي، عبد الكبير. (١٩٨٥). *النقد المزدوج*، بيروت، دار العودة.
- دلال، أحمد. (٢٠٢٣). *الفضاءات الأكاديمية والمسارات المهنية لعلماء العلوم الاجتماعية في العالم العربي*. التقرير الثالث للمرصد العربي للعلوم الاجتماعية، بيروت، المجلس العربي للعلوم الاجتماعية.
- زريق، إيليا. (٢٠٢٠). «قضايا في تطور العلوم الاجتماعية في العالم العربي»، *عمران للعلوم الاجتماعية*، المجلد ٨، العدد ٣١، ص ص. ٥٩-٨٧، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- السعيداني، منير. (٢٠٢٠). «التذويت والموضعة: الداخلي والخارجي في التحليل العلمي الاجتماعي»، *عمران للعلوم الاجتماعية*، المجلد ٨، العدد ٣١، ص ص. ٧-٣٠، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- السعيداني، منير. (٢٠٢٥). «من مواقع ثلاثة: قراءة في التقرير الرابع للمرصد العربي للعلوم الاجتماعية»، آفاق ثقافية- *المجلة العربية للدراسات الثقافية*، العدد الأول، ص ص. ١٥١-١٥٩، القاهرة، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار.
- السعيداني، منير. (٢٠٢٦). «عن فلسطين كنايةً عن الجنوب، وعن المعرفة بما هي استعارةٌ للتحرُّر»، الجنوب: *المجلة الفلسطينية للدراسات التحررية*، العدد المزدوج ٤-٥، ص ص. ٦٥٩-٦٧٢، دائرة سليمان الحلبي للدراسات الاستعمارية والتحرر المعرفي في القدس.
- الصدة، هدى. (٢٠٢٤). *العلوم الإنسانية في العالم العربي في أوقات الصراع والتغيير*. التقرير الرابع للمرصد العربي للعلوم الاجتماعية، بيروت، المجلس العربي للعلوم الاجتماعية.
- العطاس، سيد فريد. (٢٠٢١). *تطبيق ابن خلدون. إحياء تقليد مهجور في علم الاجتماع*، ترجمة أسامة عباس، بيروت، مركز نهوض للدراسات والبحوث.
- المجلس العربي للعلوم الاجتماعية. (٢٠٢٤). *أخلاقيات البحث في العلوم الاجتماعية في المنطقة العربية: المبادئ التوجيهية الخاصة بالمجلس العربي للعلوم الاجتماعية*. المجلس العربي للعلوم الاجتماعية. https://share.google/ezk3X1CnUxZa7OLTN.
- مهورباشة، عبد الله الحليم. (٢٠٢١). «أزمة العلوم الاجتماعية وميلاد النماذج المعرفية البديلة»، *مجلة جامعة المعارف*، العدد ٤ (سؤال الدين في العلوم الاجتماعية). https://mu-journal.com/index.php/mu/article/view/68.
- هنية، عبد الحميد. (٢٠٢٦). *الأخ والرعية والمواطن. دينامية الوضع السّياسي للفرد في البلاد التونسية*، ترجمة مصطفى التليلي، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

المراجع الإنكليزية

- Boukraa, R. (2026). *Anthropologie du quotidien* (2023–2025). Tunis: Nirvana.
- Subrahmanyam, S. (2022). *Connected History: Essays and Arguments*. London: Verso Books.